إلى
الشباب والشابات

كيف نفهم التوبة

تأليف
سماحة السيد حُسين الصدر
(دام ظله)

إلى

الشباب والشابات

كيف

نفهم التوبة

تأليف

سماحة السيّد حُسين الصدر

(دام ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين
والصلاةُ والسلامُ على نبينا محمد
وعلى آله الطيبين الطاهرين
وأصحابه المنتجبين

التوبة لغةً وشرعاً ومحتوىً

التوبة:- ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الإعتذار، فإن الإعتذار على ثلاثة أوجه:-

-إما أن يقول المعتذر لم أفعل.

-أو يقول فعلت لأجل كذا.

-أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك وهذا الأخير هو (التوبة).

والتوبة في الشرع:-ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع، فقد كملت شرائط التوبة.

وتاب إلى الله:-تذكر ما يقتضي الإنابة نحو:-

﴿فَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعَاً﴾

﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ﴾

﴿وَتَابَ اللهُ عَلَيهِ﴾، أي قبل توبته منه.

والتائب:- يقال لباذل التوبة، ولقابل التوبة. فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده.

والتـوّاب:- العبد الكثير التوبة، وذلك بتركه كل وقت بعض الذنوب وعلى الترتيب، حتى يصير تاركاً لجميعها. وقد يقال لله ذلك لكثرة قبوله توبة

العباد حالاً بعد حال. وقوله تعالى في سورة الفرقان/آية/ ٧١:-

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحَاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابَاً﴾

أي التوبة التامة، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل، قال تعالى، في سورة الرعد/آية/ ٣٠:-

﴿عَلَيهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيهِ متَابِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1]

فمعنى التوبة إذن في لغة العرب هو الإعتذار عن فعل القبيح بالإعتراف بالفعل والتعهد بالترك وعدم العودة، وهي أعلى مراتب الإعتذار والإستقامة والتبرؤ من الفعل.

والتوبة بمعناها الشرعي هي:- (الرجوع من المعصية إلى الطاعة بقصد التوبة المطلقة إلى الله(سبحانه)).

وينطبق هذا الرجوع أو التغيير على كل ما يمكن أن يصدر عن الإنسان من أفعال وأقوال ومواقف وما يحمله من أفكار ومشاعر وأحاسيس، والتوبة بتحليلها الواقعي: هي انتقال وتحوّل في خطّ الحياة وطبيعة السلوك، لأنها نتاج تغير نفسي وفكري جذري يحدث في أعماق الإنسان.

وقبول التوبة في واقعه يعبر عن حبّ الله لعباده وكمال صفات العفو والرحمة لديه (سبحانه) .. وهي تعبّر عن إرادة الله الخيّرة، واستمرار فيوضات اللطف والخير، وشمولها لمسيرة الإنسان، ليندمج في مسيرة الخير، كما خرجت

---

[1] الراغب/المفردات في غريب القرآن/مادة توب.

النفس من يد بارئها، بعيدة عن الإنحراف والتيه والتردي في متاهات الشرّ والإنحراف، والتوبة في مشروعية وجودها، وقبول الآثار المترتبة عليها، تحكي لنا عن عظمة قدرة الله، وإمكان تصرفه في الكون، وفي الآثار العملية التي ينتجها الوجود، وعن قدرة الله(سبحانه) على حذفها من داخل إطار الترابط الكوني والإنتظام الوجودي من دون أن تختل موازنة الفعل والنتيجة المترتبة عليه.

فهو سبحانه جعل –بحكمته– الذات الإنسانية مبدأ للفعل الإنساني. فالفعل يبدأ من التصور، فالميل النفسي نحو الشيء المراد فعله، ثم اختياره والعزيمة على أدائه وإيقاعه تمهيداً لحدوثه وانتظامه في سلسلة الأسباب والنتائج الكونية العامة.

وبذا يبقى تحمّل الإنسان لنتائج الفعل مستمراً بما له من ارتباط فكري ونفسي وجهد جسدي في تجسيده وإخراج ماهيته إلى حيّز الوجود والأشهاد، فتبقى الصلة قائمة بين الفعل والإنسان الفاعل، بما للفعل من أثر انطباعي على النفس، وتحقق موضوعي سلبي خارج على إرادة الخير، كامتداد لذات الفاعل وإرادته.

ولذا فإنّ أحداً لا يملك قبول التوبة، التي هي إبطال أثر الفعل والإعفاء من المسؤولية بعد الحدوث، إلاّ الذي خلق الأكوان وأنظمتها، وإلاّ الذي يستطيع أن يتصرف بها ويقهرها، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، قال تعالى في سورة يس/آية/٨٢:–

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيئَاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ﴾

وقال تعالى في سورة الحج/آية/١٤:-

﴿إِنَّ اللهَ يَفعَلُ مَا يُرِيد﴾

والتوبة من الله(سبحانه) على العباد هي:- قبول الإعتذار من الإنسان ومحو النتائج المترتبة تكوينياً وجزائياً على الإنسان، قال تعالى في سورة هود/آية/١١٤:-

﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذهِبنَ السَيئات ذَلِكَ ذِكْرَى للذاكِرِينَ﴾

فجعل سبحانه من جملة نظام النفس والسلوك أنَّ إرادة الخير والإمتداد السلوكي لها، قادران في عالم الوجود الفعلي على حذف ما وقع من إرادة الشرّ وتجسيدها في العالم الخارجي بعد إذنه ومشيئته.

ولولا تشريعه سبحانه بلطفه ورحمته للتوبة لما كان بمقتضى منطق الوجود التكويني أن تكون هناك توبة، ولكان تحمّل الإنسان لنتائج فعله متّسقاً مع قواعد العدل حتى مع ندم الإنسان وتراجعه وتوبته.

لأنَّ الفعل وقع من الإنسان، والنتيجة لابد أن تترتب ولا مجال في عالم التكوين إلى الحذف والتخلص، لأنَّ الأفعال قد وقعت وأصبحت وجوداً احتواها الكون وضمّها إلى سجل تحققاته، بعد أن كانت إمكاناً ينطوي في ضمير الإنسان، وينْزوي في بعض جوانبه... وما أروع دعاء الإمام علي بن الحسين عليه السلام وهو يضيء جوانب هذه الفكرة، ويزيدها وضوحاً، ويملؤها غنىً وثراءاً بألفاظه وتعابيره، حينما كان يردد:-

﴿لا ينكر يا إلهي عدلك إن عاقبته، ولا يستعظم عفوك إن

عفوت عنه ورحمته﴾[1]

وقوله (عليه السلام):-

﴿ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي، وإن كنت تغفر لي حين أستوجب مغفرتك، وتعفو عني حين أستحق عفوك، فإنَّ ذلك غير واجب لي باستحقاق، ولا أنا أهل له باستيجاب، إذ كان جزائي منك في أول ما عصيتك النار، فإن تعذبني فأنت غير ظالم لي﴾

وتلك حقيقة توصلت إليها الأبحاث والدراسات العلمية الحديثة، حيث أثبتت أن كل فعل يصدر في هذا الكون، سواءاً من الإنسان، أم من غيره، فإنّه يترك اهتزازاً وحركة موجبة تبقى تتردد في هذا الكون مازال قائماً.. لأن الكون عبارة عن جهاز تسجيل يحتفظ بكل ما يحدث فيه من فعل وحركة، وقد سجّل القرآن الكريم هذه الحقيقة المرتبطة بالوجود الكوني للفعل بقوله في سورة الكهف/آية/٤٩:-

﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾

وفي سورة المجادلة/آية/٦:-

---

[1] الصحيفة السجادية/ص ٨٢.

﴿يَومَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعَاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللّهُ وَنَسُوه وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ ﴾

وفي قوله في سورة يس/آية/١٢:-

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَ شَيءٍ أَحْصَينَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾

وفي قوله من سورة الجاثية/آية/٢٩:-

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَليكُمْ بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾

وبذا لم يكن الإنسان مستحقاً لقبول التوبة، وليس واجباً على الله قبولها، لأنّ الأصل في عالم الوجود هو الإنتظام بخطِّ سيره والإعتصام بقوانينه.

أما الإنحراف والشذوذ فإنّه يؤدي إلى ما يعكس هذه الإرادة، ويبقى وجوداً شاذاً، ونشازاً ينطق بالشهادة على فاعله، فليس واجباً على الله بعد الرسل والنذر والبيان والإيضاح أن يحذف للإنسان خطيئته هذه أو يلغي آثارها وجزاءها.

ولكنّ لطف الله ورحمته شاءت أن يتفضل على عباده ويرفع عنهم نتائج أفعالهم، ويحذفها من سجلّ الوجود، فيخاطبهم بقوله الحقّ الرؤوف في سورة الزمر/آية/٥٣:-

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم لاّ تَقْنَطُوا مِنْ رَحمَةِ اللهِ إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعَاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

وكم كان دقيقاً توضيح الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام لهذه الحقيقة

حين قال:-﴿ إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه﴾

فسئل الإمام:- وكيف يستر عليه؟.. قال:-

﴿يُنسِي مَلَكَيهِ ما كانا يكتبان عليه، ويُوحِي إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله(عز وجل) حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب﴾[1]

وإنّ في هذا الحديث وفي الآيتين السابقتين، لتأكيداً على علاقة الفعل الإنساني وارتباطه بالكون وبالعالم من حوله ارتباطاً تكوينياً بعد حدوثه، إضافة إلى العلاقة العقلية والنفسية بالنسبة لفاعله.. وقد عبّر الحديث عن القوة التي تسجّل هذا الأثر وتحفظه بالملك*.

كما أكّد أنّ الكيان الجسمي للإنسان باعتباره وجوداً طبيعياً، وبقاع الأرض التي هى البعد المكانى لتجسيد الفعل عليها، فإنها جميعاً تتأثر بالحركة والفعل المكانى فتسجله وتحويه صيغة أثرية منطبعة.

وبالتوبة تتم براءة العبد إلى مولاه من فعله السيئ هذا، فيمحو الله هذا الأثر الفعلي بعد اضطراب أصله النفسي والعقلي عند الإنسان وانسحابه منه، فيلغى من صفحة الوجود بإرادة إلهية قاهرة فوق أنظمة الوجود وقانون عمله، فيتوقف أثره ولا يلزم الإنسان بتبعاته، فتختفي الأفعال والآثار من صفحة

---

[1] جامع السعادات/ج٣/ص٦٠.

* إنَّ وجود الملكين المسؤولين عن مراقبة الإنسان واستنساخ ما يصدر عنه هو من المبادئ الأساسية في العقيدة الإسلامية التي صرح بها القرآن الكريم ودلت عليه السُنَّة النبوية.

الوجود والحفظ رغم حدوثها يوم يلقي الكون بصفحة الآثار ومدونات النشاط الإنساني التي أحصاها آثاراً وحوادث كونية منطوية في ثناياه، فيعيد إلقاءها في نهاية الشوط حقائق ذات طبيعة إنسانية كما وقعت، كما في قوله تعالى في سورة التكوير/آية/١٠:-

﴿وإِذَا الصُحُفُ نُشِرتْ﴾

وقوله تعالى في سورة الإسراء/آية/١٤:-

﴿إقرَأ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفسِكَ اليَومَ عَلَيكَ حِسِيباً﴾

وقوله تعالى في سورة الحاقة/آية/٢٥:-

﴿وَأمَّا مَن أُوتِي كِتابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيتَنِي لَم أُوتَ كِتَابِيه﴾

التوبة بين الصفات والآثار

ما أروع كلمة الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو ينقلها عن ربّ العزة، وما أعمق مدلولها وأبعد غورها وأرحب آفاقها وأوسع مداراتها.

﴿لا إله إلاّ الله حصني فمن دخل حصني أمن عذابي﴾[1]

فلو عرف الإنسان المسلم معنى كلمة (لا إله إلاّ الله) على حقيقتها، واستوعب مفاهيمها ومحتوياتها، وأدرك أثرها في حياته، وارتباط وجوده بها، وتعلق عالمه بحقيقة انطباقها، لأدرك أنَّ كل شيء في هذا الوجود قائم بـ(لا إله إلاّ الله) ومتّجه إليه، ويجهل الكثير منّا وحتى البعض من أولئك الذين يحفظون أسماء الله(تباركت أسماؤه)، ويعدّدون صفاته وأفعاله، ويدرسون علم التوحيد بنصوصه وقواعده، ويتحدثون عن إشراقات ذات الله، وفيوضات رحمته، وتعلق الوجود بقدرته، حتى أولئك يغيب على الكثير منهم، الكثير من حقائق الآثار المتجلية عن كلمة (لا إله إلاّ الله).

فلو انفتحت أبعاد النفس على هذه الآفاق الرحبة، واستوعبت العقول ما تحمل كلمة التوحيد من معانٍ تختصّ بها الذات الإلهية المقدسة، وعاشت في ظلال أشعتها، وانسياب أنوارها، لأدرك الإنسان أنه يعيش في ظل آثار هذه الصفات، وإنها حقائق تتجلى في عالم الوجود، وأنها ذات صلة بكيان الإنسان

---

[1] المحجة البيضاء/كتاب الأذكار والدعوات/ص ٢٧٤.

ووجوده، ولأدركَ لكل صفة ربّانية متجلية فيوضات تسدّ ثغرة في نفس الإنسان، وتجسّد أملاً في حياته، لذا فإنَّ السعادة ستغمره، وسيشعر بمعنى الوجود كاملاً، لو أنه عاش يستوحي فيوضاتها، ويملأ ثغرات نفسه من آثارها، ويهمّنا في هذا البحث أن ندرس التوبة كأثر من آثار تجليات هذه الصفات الربانية في حياتنا.

لأنَّ لكل جانب من جوانب الوجود–بما فيه الوجود الإنساني– ارتباطاً بصفة من الصفات الإلهية المقدسة، ولأنه الأثر المتجلي لهذه الصفات والأسماء الحسنى، وأنَّ كل ما في الوجود من قدرة، وحكمة، وعلم، وعدل، ورحمة، وعطف، وقوة..الخ، إن هو إلاّ ظل مفاض من الكمال الإلهي المطلق، وأنَّ تجليات هذا الكمال هي سرّ تقوّم العالم، ومصدر وجوده، وأنّ الوجود قبس من فيضه السرمدي المعطاء.

وقد تحدث القرآن الكريم في صفات إلهية كثيرة، وصف الله(سبحانه) بها نفسه وعظم ذاته، نستعرض منها ما يرتبط بموضوع التوبة، لأنَّ التوبة أحد الآثار المتجلية للصفات الإلهية الظاهرة في حياة الإنسان، والتوبة حسب منطق التوحيد تأتي كأثر لابد من تجليه وتحققه في نظام الخلق، ما زال خالقه متصفاً بصفات لابد وأن تترشح من جوانبها فيوضات الخير.

وهذه الصفات هي:-

أولاً:- لقد وصف الله(سبحانه) نفسه بالحلم، وجاءت صفة الحلم هي من أغلب الموارد القرآنية مقرونة بالمغفرة، لأنَّ المغفرة أثر من آثار الحلم وصفة لازمة

لها، إذ لا يمكن أن تصدر المغفرة إلاّ من الحليم، ولا يكون الحليم إلاّ غفوراً.. فقد وردت لفظة (حليم) في القرآن الكريم في أحد عشر موضعاً، في تسع سور من القرآن، اقترنت فيها صفة الحلم بالمغفرة ست مرات، واقترنت الخمس الباقية منها بصفة الغنى، والعلم، والشكر.

والحلم بالنسبة للإنسان، هو ضبط النفس عن الغضب وتحقق الأناة عنده، أما بالنسبة لله(سبحانه) فهو إمهال الإنسان، وتأجيل العقوبة، وعدم التعجيل بها، وإعطاؤه المدد الكافي لمراجعة نفسه، وإمهاله للعودة والرجوع.

والمغفرة: هي المحو، والتغطية، والستر، والصِّيانة من الدنس بصورة عامة.

أمّا المغفرة من الله(سبحانه) فهي أن يُطهِّر عباده ويصونهم من العذاب، ويمحو عنهم سيئاتهم، ويستر عليهم ذنوبهم وعيوبهم، فلا يفضحهم، قال تعالى في سورة البقرة/آية/٢٢٥:-

﴿لا يُؤَاخِذُكُم اللهُ بِاللَّغو فِي أَيمَانِكُم وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَت قُلُوبُكُم وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

وقوله تعالى في سورة البقرة/آية/٢٣٥:-

﴿وَأعلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُم فَاحذَرُوهُ وَأعلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

فاتصاف الله(سبحانه) بعلم ما في أنفس الناس من خير وشرّ، وعدم فضحه لهم، بل على العكس من ذلك، فإنه يستر عليهم، ويعطيهم فرصة للعودة والرجوع إلى الحقّ، إنَّ اتصاف الله(سبحانه)

بهذه الصفة هو الذي نسميه (حلماً).

واتصافه بالحلم، والمغفرة، والستر، قد فتحَ لعباده باب التوبة، لأنّه (تعالى) لم يعاجلهم بالعقوبة، بل وسعهم بحلمه ووعدهم بمحو الخطيئة وبالتسامح بعظيم مغفرته وواسع رحمته.

ثانياً:- إتصافه (سبحانه) بالعفو والقدرة، فاتصافه بالقدرة أساس يبنى عليه العفو، وتنتج عنه التوبة، لأنه لا يعفو إلاّ المقتدر، ولا يهب إلاّ المالك.

ولو تابعنا وصف القرآن لله(سبحانه) ونسبة صفة العفو إليه، لوجدنا أنَّ اتصافه بالعفو يأتي في أغلب الأحوال مقروناً بالمغفرة، وأحياناً يأتي عفوه مرتبطاً بالحلم، والقدرة، قال تعالى في سورة آل عمران/آية/١٥٥:-

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيْمٌ﴾

وقال في سورة النساء/آية/١٤٩:-

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرَاً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُّوَاً قَدِيرَاً﴾

وقال تعالى في سورة النساء/آية/٩٩:-

﴿فَأُولَئِكَ عسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُّواً غَفُورَاً﴾

لتلازم هذه الصفات وارتباط بعضها ببعض، فصفة المغفرة قائمة على العفو، وصفة العفو متوقفة على القدرة.

وباتصافه سبحانه بالقدرة على العفو عمّا يريد العفو عنه، تشخّصت التوبة حقيقة في عالم الآثار، ونظماً في دنيا الإنسان، كظلٍ

لصفة العفو والقدرة، وأثر موصول لها في حياة الإنسان.

ثالثاً:- إتصافه سبحانه باللطف.. واللطف الإلهي: هو الرفق بالعباد والرقّة عليهم، ويتجلّى هذا اللطف الإلهي في تيسير الله لكل ما من شأنه أن يقرب العباد من الطاعة، ويبعدهم عن المعصية، تحنناً عليهم، ورفقاً بهم، فهو لا يكلفهم فوق طاقتهم، ولا يسد أمامهم أبواب الرجوع إليه بعد التمرد عليه، لئلا تكون نهاية شوطهم في هاوية العذاب، والبعد عنه سبحانه.

لذا كانت التوبة مظهراً من مظاهر تجلّي اللطف وحالة من حالات ظهوره في دنيا الإنسان، قال تعالى في سورة الأحزاب/آية/ ٣٤:-

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾

وقد أورد القرآن الكريم صفة اللطف في سبعة مواضع مختلفة من موارده، جاءت منها صفة اللطف هذه مقترنة في خمسة مواضع بصفة (خَبِير) لوجود العلاقة الذاتية بين صفتي اللطف والخبرة، لأنّ الذي يتصف باللطف وهو الخفاء وعدم الظهور للحواس لتنَزهه عن الكشافة والتحيُّز المكاني والزماني، لا يخفى عليه شيء لارتفاع الحدود، ولسريان وجوده وإحاطته بكل شيء بسبب لطافته، فيكون خبيراً بالأمور لاطلاعه عليها، وحضورها لديه جميعاً.

وهو سبحانه مطّلع على ما في نفس الإنسان من ضعف وعجز

يحولان دون احتفاظه بخط الإستقامة في كل ما يصدر عنه، قال تعالى في سورة الملك/آية/١٤:-

﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾

فالإنسان بطبيعة تكوينه معرَّض للخروج على هذا الخط السلوكي المستقيم، وهو أيضاً كثيراً ما يحبّ العودة ويتوق إلى الإستقامة، ليندمج مرة أخرى في عالم الخير والنقاء، ويعود إلى فطرته وعهده مع ربهﷻ.

ولكي يتمكن من ذلك فإنه يحتاج إلى السماح والعفو، لتقبل عودته، وترتضى توبته، فكان لطف الله -أي رفقه ورقّته- هو الشفيع للإنسان لقبول العودة، لأنّ الله(سبحانه) يريد قرب العبد منه، ويحب أن يرى حقيقته تتطابق مع إرادة خالقه ورضاه سبحانه.

قال تعالى في سورة البقرة/آية/٢٢٢:-

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِرِينَ﴾

لذا كانت التوبة وكان العفو الإلهي الجميل.

رابعاً:- إتصافه سبحانه بالودّ والرحمة، والودّ والرحمة هو المحبة.

والرحمة: هي رقّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، والله(سبحانه) لم يصف ذاته المقدسة بصفة مكررة ومؤكد عليها بصورة معادلة لصفة الألوهية عندما أجاز إطلاق اسم (الرحمن) على الذات الإلهية بدلاً من تسمية الذات المقدسة بـ(الله) واعتبرها كافية لمناجاة ذاته المقدسة

لتمام دلالتها عليه، فقال تعالى في سورة الإسراء/آية/١١٠:-
﴿قُل ادعُوا اللهَ أَو ادعُوا الرَّحمَن أَيّاً مَا تَدعُوا فَلَهُ الأَسمَاءُ الحُسنَى﴾

فكلا اللفظين (الله) أو (الرحمن) يدل على الذات المتصفة بالصفات الحسنى، وإنَّ أثر هذه الصفة الربانية في حياة الإنسان لعظيم، لأنها المنبع الأزلي لإفاضة أحاسيس الأمان والطمأنينة والسلام والمصدر لبعث الأمل والرجاء في استمرار الرابطة بين الله وخلقه في نفس الإنسان وهي وعاء صفات القرب التي تستوعب معاني الحب، والودّ، والمغفرة، والإحسان، والسلام...الخ.

وهي الوصل الذي يردم فجوة البعد والنفور، ويحذف الجفوة والصدود بين الإنسان وخالقه، وهي التي تهيئ الإستعداد النفسي لدى الإنسان لإعادة علاقته الودية الآمنة مع الله(سبحانه)...

وهي التي تضفي على شعور الإنسان جوّاً من الإنس والطمأنينة حتى يتملكه الإحساس بالغبطة والحماية من الوقوع تحت صفة الغضب والجبروت والإنتقام، وقوله تعالى في سورة النور/آية/٢١:-
﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدَاً﴾

وقوله تعالى في سورة هود/آية/٩٠:-
﴿وَاستَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾
وقوله تعالى في سورة المؤمنون/آية/١١٨:-
﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيرُ الرَاحِمِينَ﴾

وقوله تعالى في سورة البقرة/آية/١٦٣:-

﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لا إِلَـهَ إِلاّ هُوَ الرَّحمَنُ الرَّحِيمُ﴾

وهكذا تشخص العلاقة بين الله وخلقه كما أرادها سبحانه أن تكون قائمة على أساس الرحمة واللطف، والود، والمغفرة، والعفو، والحلم، والستر ليحيا الإنسان وقلبه عامر بالطمأنينة، والحب، والسلام، ونفسه يملؤها الأمل والرجاء، وانتظار الإحسان من رب يتصف بصفات الود والحب هذه.

من هنا كان قبول التوبة أملاً يراود قلب الإنسان، ورجاءاً يعيش في نفسه كنتيجة منتظرة لهذه العلاقة الحبيبة بين الله وخلقه.

ولقد كان هذا الأمل حقيقةً والرجاء واقعاً يتجسّدان في ظل صفات الله الرحمانية المقدسة، كما قال تعالى في سورة الزمر/آية/٥٣:-

﴿قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِم لا تَقنَطُوا مِن رَحمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُنُوبَ جَمِيعَاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم﴾

فباب التوبة مفتوح وحبلها ممدود، فهي كما وصفها الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:-

﴿التوبة حبل الله ومدد عنايته﴾

الإنسان هو المخاطب بالتشريع، ونشاطاته المختلفة هي مجال انطباق الأحكام والتشريعات الإسلامية، وما جاء الإسلام إلاّ ليطابق بين نشاط الإنسان واتجاهه في الحياة، وبين إرادة الخير ومشيئة الرحمة في هذا الوجود، لذا، فإنَّ هذه المطابقة تقتضي منتهى الدقة في تقويم طبيعة الإنسان واستعدادته وإمكاناته لئلا تتعذر هذه المطابقة وتنسف غاية الدين، ومن هنا كانت التكاليف الإسلامية تجري بمستوى الطاقة والإستعداد الإنساني، قال تعالى في سورة البقرة/آية/٢٨٦:-

﴿لاّ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾

وقال تعالى في سورة النور/آية/٢١:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَولاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدَاً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وقال تعالى في سورة النساء/آية/٤٩:-

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ لاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾

وقال تعالى في سورة يوسف/آية/٥٣:-

﴿وَ مَا أُبَرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ

رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

وقال تعالى في سورة ق/آية/١٦:-

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾

﴿إن الله يحبّ من عباده المفتن التواب﴾[1]

﴿إن الله(عز وجل) أعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها أهل السماوات والأرض لنجوا بها، قوله عز وجل:-

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابِين﴾

وقوله تعالى في سورة غافر/آية/(٧-٩):-

﴿الَّذِينَ يَحمِلُون العَرشَ وَمَن حَولَهُ يُسَبِحُونَ بِحَمدِ رَبِّهِم وَيُؤمِنُون بِهِ وَيَستَغفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رَحمَةً وَعِلمَاً فَاغفِر لِلَّذِينَ تَابُوا -إلى قوله- وَذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيم﴾

وقوله:-

﴿وَالَّذِيْنَ لاَ يَدْعُوْنَ مَعَ اللهِ إِلهَاً آخَرَ لاَ يَقْتُلُوْنَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بِالْحَقّ وَلاَ يَزْنُوْنَ وَمَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ يَلْقَ آثَامَاً يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُد فِيْهِ مُهَانَاً إلاّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ -إلى قوله- وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1]

والإسلام عندما استهدف عملية المطابقة بين إرادة الإنسان ونشاطه من جهة، وبين إرادة الخير والرحمة الربانية من جهة أخرى،

---

[1] حديث شريف.

[1] جامع السعادات/ج٣/ص٦٥ عن الإمام الصادق(عليه السلام) عن جده رسول الله(صلى الله عليه وآله).

آخذاً بنظر الإعتبار، أنّ الإستعداد الإنساني بما يحمل من نوازع نفسية، وقدرة عقلية وجسمية محدودة، ربما يعاني من انقسام بين طريقين في الحياة. طريق الخير وطريق الشر، لا يستطيع أن يتوافق دائماً مع إرادة الله(سبحانه) ولا يمكنه أن يستقيم على امتداد الخط دونما نكوص أو تعدٍ وشذوذ، لأنّ طبيعة ما يحمل من قوى ودوافع ونزعات واستعدادات تقصر به عن أن يكون الظل الحقيقي في هذه الأرض لإرادة الخير المطلق وغاية الخلق الكبرى.

وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ما يترجم هذه الحقيقة ويعبر عنها وهو قوله:-

﴿المؤمن كالسنبلة يضيء أحياناً ويميل أحياناً أخرى﴾

﴿لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة﴾

لذا، فإنَّ الإسلام كما شرع القوانين والأحكام وقواعد التنظيم الأساسية للحياة أدخل كذلك في حسابه حقيقة عدم التطابق الكلي وحصول المعصية والشذوذ عن الإستقامة، فجعل لهذا الشذوذ والعصيان والخروج علاجاً خاصاً به وتشريعاً شاملاً لتنظيمه بغية العودة بالإنسان إلى خط الإستقامة والتطابق مع إرادة وغاية الوجود الكبرى وهي الاتجاه التكاملي نحو الخير الأعظم.

ومن هنا جاء تشريع الإسلام للتوبة وتأكيده على أنّ الإنسان لا يمكنه أن يكون حقيقة إراديّة تمثل إرادة الخير وتتسامى إلى معارج الكمال إلاّ برحمة من الله وإلاّ بفتح باب العودة إليه كلما شذّ الإنسان

أو انحرف. وبذا كان الإسلام واقعياً وعملياً عندما تعامل مع الإنسان تعاملاً يناسب واقعه كإنسان يخطئ ويصيب، وينحرف ويستقيم.

ولذا أكّد القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة للإنسان هذه الحقيقة ليتذكر فضل الله عليه، وليدركَ لماذا يعصي؟ ولماذا يتوب؟ وما هي علاقته بالله وهو يعصي ويتوب ويخطئ ويعتذر؟..

فمن أجل ذلك جاء الإيضاح كافياً في جملة من النصوص التي تكشف للإنسان حقيقة ذاته وطبيعة علاقته ودرجة تطابقه مع إرادة الله(سبحانه) والتزامه بشريعته، قال تعالى في سورة النور/آية/٢١:-

﴿وَلَولاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدَاً﴾

وقال تعالى في سورة النساء/آية/٤٩:-

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ لاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾

وقال تعالى في سورة يوسف/آية/٥٣:-

﴿وَ مَا أُبَرِئُ نفْسِي إِنَّ النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

وقال تعالى في سورة ق/آية/١٦:-

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾

أوضحت هذه الآيات، أنّ النفس الإنسانية الضالّة البعيدة عن اللهﷻ من مواصفاتها أنها تنزع للإستقلال في هذا الوجود والإنفصام عن إرادة الله بما يتلقى من أوهام ووساوس ونفثات الشر الشيطانية لتكون إلهاً في الأرض، إلاّ أن رحمة الله هي التي تظلل هذا

الكائن البائس، ليغمره الحب الإلهي، ويشمله العفو الرباني، فينهض مرةً أخرى من كبوته وسقوطه، ليواصل مسيرة التكامل وحب الخير، بعد أن يستفيق في أعماقه حس الضمير، ويحاول تجاوز دائرة الظلام إلى عالم النور والعودة إلى رحاب الله، ليحقق أهدافه في الوصول إلى الله إلى الخلود والسعادة الأبدية، وليجد نفسه سابحاً في هالة من الحب والسعادة، متقلّباً في عوالم العفو والرّحمة والإجلال.

فالملائكة تسبّح بحمد الله وتستغفر للتائب، وخالقه الذي أحصى عليه تمرده وعصيانه، يصفح عنه، ويرضى بعودته، ويحب قربه، قال تعالى في سورة البقرة/آية/٢٢٢:-

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِرِينَ﴾

﴿التائب من الذنب كمن لا ذنب له. التائب حبيب الله﴾[1]

وبذا يجد العبد أبواب العودة مشرعة وآفاق القبول رحبة متسعة لئلا يستبدّ به اليأس، ويطغى عليه القنوط، فيتمادى في المعصية، ويودّع حياة الإستقامة إلى غير رجعة.

---

[1] جامع السعادات/ج٣/ص٦٥.

والتوبة بمختلف مراحل تحققها الخارجية، من ترك للمعصية، وأداء لما فات، وعدم المعاودة لما قد أعرض عنه الإنسان، تعبر بكل مظاهر تحققها الخارجية هذه عن موقف نفسي داخلي، أخذ ينمو في داخل الذات الإنسانية ويمتدّ إلى خارجها بشكل تصحيح سلوكي، ومواقف إنسانية مستقيمة، بعد أن حقق الوعي الإنساني عملية رفض جادة للآثار الظلامية التي تركتها الجرائم والآثام، في محاولة مخلصة لإعادة موازنة النفس إلى حالتها الطبيعية، وتفجير ينابيع الخير في طرق النفس النامية باتجاه الغايات الإنسانية السليمة.

ويجد التائب في رحاب الشريعة ما يشجعه على التوبة والإمتداد التغييري الجديد، كقول رسول الله(صلى الله عليه وآله):-

﴿إنّ العبد ليذنب الذنب فيدخل الجنة﴾

قيل:-وكيف ذلك يا رسول الله؟.. قال:-

﴿يكون نصب عينيه تائباً منه، فارّاً حتى يدخل الجنة﴾

ذلك لأن الله(تعالى) قال في سورة البقرة/آية/٢٢٢:-

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِرِينَ﴾

وقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له﴾[1]

وقال:-

---

[1] جامع السعادات/ج٣/ص٦٥.

﴿ كفارة الذنب الندامة ﴾[٢]

وقال الإمام الصادق عليه السلام:-

﴿إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه﴾[٣]

فهذه المجموعة من النصوص الإسلامية العظيمة في محتواها، الخطيرة الأثر في مجال انطباقها، تفتح أمام الإنسان الشاذ والمجرم والمنحرف الذي يجنح للرذيلة ويوغل في الشذوذ، فيرتكب الجرائم ويقترف الآثام، ويألف هذا اللون من الحياة..حياة الشذوذ والإجرام..تفتح أمامه أبواب الأمل والعودة لئلا ييأس من نفسه ويحكم عليها بانقطاع الأمل والرجاء، لأنَّ المجرم والمنحرف يدرك ولو في لحظة من لحظات الصحو الوجداني أو في ظل غمرة من غمرات الخواطر العقلية النزيهة، إنّه إنسان خارج عن سُنَّة الوجود وإنه عابث، متمرد، ووجود ضار، وهو بذلك يشعر أنَّ المجتمع يمقته، وينظر إليه كنفاية من نفايات المجتمع، وإفراز مرضي خطر يسمم حياة الناس الأسوياء ويشكل خطراً على أمنهم وسلامتهم.

إنَّ هذا الفهم يترك عقدة الإحساس بالنقص تنمو، لذا فإنَّ فتح باب التوبة خير عون لمثل هذا الإنسان، وأفضل مكسب يعيد إليه الثقة، ويخلّصه من الشعور بضغط المجتمع وازدرائه له، وبالفعل فإنَّ المجتمع له قوة ضغط نفسي هائل على أعصاب الشاذ والمجرم، وهو

---

(٢) المصدر السابق/ص٦٧.

(٣) المصدر السابق/ص١٧.

كذلك ينظر باحتقار وازدراء لمن يمارس المعصية أو يسقط في هاوية الرذيلة، وتبقى أحكامه هذه أساساً للتقويم، والتعامل مع هذا المجرم.

فالذي عُرفَ بالكذب، أو السلوك العدواني، كالزنا، والسرقة، والخطف، أو اشتهر بالخيانة، والرشوة، وسفك الدماء، أو عرف عنه أنه سكير مدمن، أو منحرف شاذ، يبقى المجتمع ينظر إليه بهذه النظرة، ويعامله على هذا الأساس من التقويم...

فإذا نظر هذا الشاذ إلى نفسه، والقانون يطارده، والمجتمع يزدريه، ويترفع عن التعامل معه شعر بالنقمة على المجتمع، وتمادى في الإسراف في الإنحراف، إن كان لا يأمل إصلاحاً، ولا يرجو تصحيحاً لمفهوم المجتمع عنه، إلاّ أنَّ الإسلام نظر إلى المنحرف والشاذ والعاصي نظرة إشفاق ورحمة، وكرّس جانباً كبيراً من تشريعه وتوجيهاته لمعالجة الإنسان وإصلاحه، قال تعالى في سورة النساء/آية/١١٠:-

﴿وَمَن يَعمَل سُوءاً أَو يَظلِم نَفسَهُ ثُمَّ يَستَغفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رحِيماً ﴾

فباب التوبة مفتوح، وأفق الرحمة متسع لهذا الإنسان إذا ما هو استفاق من غفلته، واستيقظ ضميره، وأحب العودة إلى حياة الطهر والإستقامة..

وبذا بنى الإسلام موقفه من التائب على أساس واقعي وتقويم عملي لحقيقة السلوك والآثار الناتجة عنه، فالسلوك هنا هو سلوك

منحرف، وهو حقيقة وقعت، وإنَّ ارتباط الإنسان بها ومسؤوليته عنها ما زالت قائمة إلاّ أنَّ الله بعفوه قد أعطى الإنسان فرصة فك هذا الإرتباط الأثيم من الفعل والتخلص من تبعاته، فلم يعد مسؤولاً عنه ما زال ارتباطه النفسي والعقلي قد انقطع به:-

﴿ كفارة الذنب الندامة﴾[1]

فيكون التائب بريئاً أمام نفسه والمجتمع الذي يحيط به من كل تبعة أو فعل صدر منه ثم تاب منه، لأنَّ المجتمع الإسلامي يفهم معنى التوبة ويؤمن بآثارها المترتبة عليها، فإذا عرف من المجرم والعاصي توبته غفر له ما كان يعرف به، وبدّل نظرته عنه، لأنَّ الله المالك المتصرف في هذا الخلق قد فتح له باب العودة والدخول في رحاب الحياة النقية المستقيمة:-

﴿التائب حبيب الله والتائب عن الذنب كمن لا ذنب له﴾ [2]

وعلى أساس هذا الإحساس الجديد تولد مشاعر الإنسان الجديد، ونظرته إلى نفسه، وتقويمه لنظرة الناس إليه، فيتحول من إنسان يحس بالإزدراء والرفض من قبل المجتمع وباليأس والشذوذ والتفاهة من قبل نفسه، إلى إنسان يشعر بكرامته على الله، وعلى المجتمع الذي يحيط به، فيغمره حبه لله وحب الله له، واحترام الآخرين لموقفه الجديد،

---

(١) المصدر السابق/ص٦٧.

(٢) المصدر السابق/ص٦٥.

فيكون اندفاعه نحو الخير مخلصاً، واتجاهه نحو الإصلاح صادقاً، بعد أن قاسى تجربة الإنحراف، وعانى مرارة البعد عن الله، والطرد من رحمته، والشعور بوخزات الضمير، ونقد المجتمع اللاذع له، كما قال تعالى في سورة الزمر/آية/٥٣:-

﴿قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِم لا تَقنَطُوا مِن رَحمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُنُوبَ جَمِيعَاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم﴾

وجوب التوبة

لما كانت التوبة قراراً إنسانياً حاسماً، بالرجوع عن المعصية، والإعراض عن الشر والرذيلة، والعودة إلى حياة الإستقامة والطاعة..

ولما كانت نتائجها العملية خطيرة في سجل الإنسان ومصيره، كانت التوبة واجبة على كل عاصٍ ومجرمٍ ومنحرفٍ، بحكم العقل، وإدراكه لخطر المعصية، وضرر الإنحراف والجريمة..

ففي الإنحراف والمعاصي خطر على حياة البشرية، وإضرار بمصالحها في الحياة الإجتماعية، بما يقارف الجناة والمجرمون من مخالفات لنظام الحياة، وتحدٍ لمبادئ الأخلاق، وقيم السلوك المستقيم، فيهددون أمن البشرية، وينغصون عيشها، ويعرضون حياتها للخطر..

وبالإنحراف والمعاصي، يعرض الإنسان نفسه لغضب الله، فيبيع سعادته بالألم والعذاب، ويختم حياته بآخرة شقية تعيسة، وبذا يخسر العاصي دنياه وآخرته، ويضر نفسه وغيره، وليس في العقلاء من يقوّم هذه النتيجة المأساوية فيرضى بها، ولا يسعى إلى رفضها وتغييرها..

لذا، كانت التوبة واجبة على كل مسلم، بل على كل إنسان بحكم العقل، وبإدراكه للمصالح البشرية الراجحة...

ويتطابق حكم العقل هذا بوجوب التوبة مع حكم الشرائع الإلهية جميعاً، فهي جاءت لتطهر الإنسان العاصي من الذنوب، وتنقذه من متاهات الظلال والإنحراف، وتدعوه إلى حياة الطهر والإستقامة...

وانطلاقاً من هذه المبادئ جعل الإسلام التوبة ركناً من أركانه، وخطوة هامة في منهاج الإنقاذ والهداية للبشرية، فأكد القرآن الكريم والسُنَّة النبوية على وجوب التوبة والعودة إلى الله، والدعوة إلى فتح صفحة جديدة في سجل الإنسان، والتجافي على الماضي البغيض، الذي ناءت النفوس العاصية بحمله، وتسودت الصفحات الناصعة بآثامه، وتشوهت الحياة الجميلة ببصمات عاره..

فدأبَ القرآن على رفع صوته في أوساط العاصين، وإعلان عفوه في جموع المنحرفين، بفتح باب التوبة والعفو الإلهي لهم، فخاطبهم في سورة النور/آية/٣١:-

﴿وَتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعَاً أيُّهَا المُؤمِنُون لَعَلَّكُم تُفلِحُون﴾

وقوله تعالى في سورة هود/آية/٦١:-

﴿هُوَ أنشَأَكُم مِن الأَرضِ وَاستعمَرَكُم فِيهَا فَاستَغفِرُوه ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ إِنَّ رَبّي قَرِيبٌ مجِيبٌ﴾

وقوله تعالى في سورة التحريم/آية/٨:-

﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلى الله تَوبَةً نَّصُوحاً﴾

ولهذا صار واجب الإنسان أن يستجيب لهذا النداء ويستفيد من هذه السانحة الفريدة قبل يوم الحسرة والندامة.. يوم يقول كما جاء في سورة الزمر/آية/٥٦:-

﴿ يَا حَسرَتِي عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وَإن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِين﴾

عوامل التوبة

التوبة بما أنها منعطف سلوكي، وتحول فكري، وتغير يحدث في حياة الفرد والجماعة، فهي لا يمكن أن تحصل في حياة الفرد إلاّ بعد أن تتوفر عدة عناصر أساسية، وهذه العناصر هي:-

١-المعرفة: لكي يستطيع الإنسان أن يميز بين المواقف السلوكية المتعددة ويوازن فيما بينها، ويقوم بتقويمها، وإعطاء أحكام نهائية عليها، واختيار ما يجب اختياره منها، لابد له من معرفة حقيقية بها، ولابد له من وضوح فكري كامل، يستطيع على أساسه أن يدرك انحرافه، ويميِّز بين الصواب والخطأ، ويفرق بين الإستقامة والإنحراف، ويعرف الخير من الشر، ولا يمكن للجاهل أن يحقق هذا الشرط، فيستوضح الطريق ويعرف استقامة المسار، إنما المعرفة والوعي السليم هي الطريق الموصل إلى الله(سبحانه)، وهما الأداة الفكرية التي ترسم أمام الإنسان خط المسير الهادي إلى خير البشرية وكمالها وهما الدليل المنقذ من وهدة السقوط ومتاهات الظلال، فما لم يحصل هذا الشرط لا يمكن أن تحصل التوبة.

لذا وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفرض تعليم الجاهل لتستكمل التوبة كل مستلزماتها، وتسقط الأعذار والتبريرات التي قد يتستر بها المجرم أو العاصي، وللغرض ذاته كان واجباً على الإنسان أيضاً أن يتعلم كل ضروري من قضايا العقيدة والتكاليف التي

تتوقف عليها هدايته ومصيره.

وتأكيداً لهذه العلاقة بين الإيمان والهداية والعلم، ذَمَّ القرآن الجهل والجهّال، وامتدحَ العلم والعلماء العارفين، وربط في مواطن كثيرة بين الجهل وبين التيه والظلال، قال تعالى في سورة الأحقاف/آية/(٢٢-٢٣):-

﴿قَالُوا أَجِئتَنَا لِتَأفِكَنَا عَن آلِهَتِنَا فَأتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين قَالَ إِنَّما العِلمُ عِندَ الله وَأُبَلِّغُكُم مَا أُرسِلتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُم قَومَاً تَجهَلُون﴾

وكما ربط في هذه الآية الكريمة بين الجهل والظلال، ربط أيضاً بين العلم والإيمان في مواطن أخرى، فقال تعالى في سورة القصص/آية/٨٠:-

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتوا العِلمَ وَيلَكُم ثَوَابُ اللهِ خَيرٌ لمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً وَلا يُلَقَّاهَا إلاّ الصَّابِرُونَ ﴾

وقوله تعالى في سورة فاطر/آية/٢٨:-

﴿إِنَّمَا يَخشَى اللهَ من عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾

لأنّ المعرفة هي مصدر لكل محفِّز فكري يحمل الإنسان على سلوك طريق التوبة:-

فبالعلم يحصل لديه الخوف من الله...

وبالعلم ينبعث فيه دافع الرجاء والشوق إلى الله...

وبالعلم تشرق نفسه بأنوار حب الله...

وبالعلم يستيقظ ضميره ويعود إليه وعيه...

٢-الإحساس بالذنب (يقظة الضمير): وعند انكشاف صورة الفعل، تشخص حقيقة الإنسان الخارجية أمام وعيه وإحساسه الوجداني السليم، بسبب الرؤية العلمية الحاصلة لديه، يبدأ بفهم ذاته على حقيقتها، فتولد في نفسه عملية موازنة، بين ما يملك من قيم ومقاييس للصيغة الإنسانية الجميلة، وبين ما هو عليه من واقع مؤلم قبيح، مع وضوح مسؤوليته، ودوره السيئ في تشويه حقيقته، وتجسيد صيغته في مجالات التحقق السلوكي الناطق بقبح ذاته الباطنة، وتسافل قواه النفسية، والعقلية، وسقوط وعيه، واختياره، فتبدأ تتجمع في نفسه خيوط الاستنكار والإشمئزاز، ويبدأ موقف الرفض والإحتجاج ينمو في نفسه، فيتحول إلى صراع نفسي، ووخزات وجدانية مؤلمة كوسيلة أولى لفرض العقاب على نفسه...

ثم تأخذ صيحات الضمير تعلو وتتمركز حتى يتم لها الإنتصار. لأنّ الإنسان بتكوينه الفطري، يكره النقص ويحاول التخلص منه، ويسعى للكمال الذاتي، ويحب الوصول إليه بشتى الطرق والوسائل..

ولكنه وبسبب من جهله يخضع لعوامل وهمية كثيرة يحاول عن طريقها إشباع هذا الإتجاه النفسي، بطرق ملتوية شاذة، إلاّ أنه سرعان ما ينكشف له هذا التعبير الشاذ، ويتجسد له هذا الخطأ المتستر عن طريق الوعي والمعرفة، فيندم على سيئاته، ويسعى للإنفصال عن جريمته، والتخلص من تبعات انحرافه، لأنه يدرك أنّ ما صدر عنه لم يكن يتطابق مع ما يجب أن يكون عليه وجوده الإنساني الحق، بعد

أن ارتسمت أمامه صورة نفسه شوهاء قبيحة،

وشاذة منبوذة، وأدرك أنّ اختياره الشاذ لتحقيق ذاته هو السبب في نسج هذه الصورة، وإحداث هذه الشاكلة في عالم المقاصد والأعمال.

وعندها يبدأ الندم، أي الإحساس بالألم عمّا فرّط، والرغبة في إفناء هذا الوجود الشاذ، فيأخذ موقعه في النفس كقوة باعثة على الحركة، والإندفاع نحو التوبة، وداعية إلى الإنفصال عن الماضي البغيض، لصنع وجودٍ آخر لذاته يتطابق مع صيغتها الإنسانية الخيرة.

٣-الإرادة: والإرادة هي العنصر المهم والفعال في عملية التوبة، لأنّ الإرادة هي القوة التي تحدد الموقف، وتصدر القرار، بعد حصول الرؤية السليمة، والوضوح الفكري الذي توفره المعرفة، وهي نقطة الإرتكاز التي يتم التحرك حولها في عملية الإنقلاب النفسي والفكري عند الإقدام على التوبة، خصوصاً عندما يتعرّض الإنسان لعملية صراع نفسي، ويقدم على هدم الإعتبار السلوكي الذي استوعب اتجاه الذات. فالعاصي والمجرم المتورط في الإرتباط الشاذ مع دوافع الإنحراف، يحتاج من العزم، وقوة الإرادة، ما يمكِّنه من قطع هذه العلاقة، وتغيير اتجاه الذات لمسارها، وبدون قوة الإرادة وصدق العزيمة لا يمكن للإنسان أن يتحوّل من المعصية إلى الطاعة، لأنّ العزيمة هي المبدأ والمنطلق النفسي للإنسان لاتخاذ القرار، وتحديد الموقف السلوكي.. وقد ترجم الإمام الصادق عليه السلام دور الإرادة في حياة الإنسان وأهميتها

بقوله:-

﴿ما ضَعُفَ البدنُ عمّا قَوِيت عليه النية﴾

فالإرادة:-هي القوة القادرة على تغيير مسار الإنسان وتصحيح اتجاهاته فى الحياة.

لكي تتحقق التوبة

ولكي تتحقق التوبة، ولكي يعبّر الإنسان عن صدقه وإخلاصه في العودة إلى الله، لابد من أن يترجم التوبة، ويحقق الإبتعاد عمّا صدر منه، والإنفصال عن سيئاته ويثبت في تشكيل صيغة خيّرة لذاته، ويجسّد حبه لله وخوفه منه، في وقائع ومواقف.. لابد له إن أراد كل ذلك من:-

أولاً:-الندم، وهو الإحساس بالألم والحسرة على ما فات مع رغبة نفسية ملحة لتلافيه، وسدّ الثغرات التي خلّفتْها المواقف السلوكية التي أصبحت بغيضة، ومرفوضة، لدى الإنسان التائب.

ثانياً:-ترك المعاصي والسيئات التي كان يمارسها، وعدم المعاودة إلى أمثالها، أي أنّه يستأصل أثر الدافع النفسي المنحرف، ويمنعه من التعبير عن نفسه بأي صورة من صور التعبير الخارجي.

ثالثاً:-تلافي ما يمكن تلافيه، وأداء ما يمكن أداؤه. فإن كان قد سرق، أو اعتدى على أحد، أو أساء إلى إنسان أو ظلمه، وجب عليه أن يعيد ما سرقه إلى أصحابه الشرعيين، وأن يعتذر عن إساءته وعدوانه، ويعوّض ما يمكن تعويضه للمظلوم، والمعتدى عليه..الخ.

كما يجب عليه أن يؤدي كل واجب فرّط بأدائه، وهو قادر عليه الآن، كالصلاة والصوم والحج وبرِّ الوالدين.. الخ.

وبغير ذلك، فلا معنى للتوبة، ولا تحقق لها في عالم المقاصد

والأعمال.وما أدق بيان الإمام علي عليه السلام لمفهوم التوبة، وهو يوضّح لمَن قال بحضرته:- أستغفر الله..

﴿ثكِلَتْك أمك، أتدري ما الإستغفار؟..

إنّ الإستغفار درجة العليِّين وهو إسم واقع على ستة معان:-

الأول:-الندم على ما مضى.

الثاني:-العزم على ترك العود إليه أبداً.

الثالث:-أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة

الرابع:-أن تعمد إلى كل فريضةٍ عليك ضيعتها، تؤدي حقها.

الخامس:-أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السُحت، فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم، وينشأ منهما لحم جديد.

السادس:-أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول:-(أستغفر الله)﴾[1]

❁ والحمد للهِ ربِّ العالمين ❁

---

[1] جامع السعادات/ج٣/ص٧٨.

الفهرس

التوبة لغةً وشرعاً ومحتوىً ٣
التوبة بين الصفات والآثار ١١
التوبة تعبير عن واقعية الإسلام ١٩
الآثار النفسية والإجتماعية للتوبة ٢٤
وجوب التوبة ٢٩
عوامل التوبة ٣١
لكي تتحقق التوبة الفهرس ٣٦
الفهرس ٣٩